

النصائح في القرآن وتطبيقها في العصر الراهن

Ms. MAS Muthu Katheeja

Research Scholar, Department of Arabic, Persian and Urdu,
University of Madras, Chennai, India. Email: arshad00033@gmail.com

متو خديجة

باحثة الدكتوراه، قسم اللغة العربية والفارسية والأردية،
جامعة مدراس، تشناني، الهند.

Abstract

The word advice and its related terms are used abundantly in the Holy Quran. Advices given by the Prophets, righteous people and others are mentioned in the Quran in the context of calling towards right path, reformation and change. By contemplating the study of these Quranic verses and analyzing them scientifically, we can derive the Quranic concept of advice, realize its most important fields and types, get acquainted with the most important characteristics and general specifications that make the Quranic advices are applicable at all times and places in the context of education, reformation and rectification of an individual and the society.

This short paper aims to focus on the study of eliciting and formulating the scientific and practical concept of advice through the context of the verses of the Holy Quran that talked about advice and its derivatives. The study also tries to highlight the fields and features of the Quranic advice, which helps in the projection and practical application of the same in the current era, which needs more rules, regulations and guidelines, in a way that suits the rule of legal principles and constants that aim in their entirety at comprehensive and general reformation.

Key Words: Advice, Holy Quran, Quranic concept of advice, Features of the Quranic advice

ملخص الرسالة

إنّ القرآن الكريم متميّز في حديثه عن النصيحة باستخدام اللفظ المباشر - نصّح - وما اشتق منه عدة مرات. وذلك في مجال النصيحة المحمودة القدوة على ألسنة النبيين والصالحين بمقصد الدعوة والإصلاح والتغيير. ومن خلال تأمل هذه الآيات القرآنية ودراستها، وتحليلها علمياً يمكن لنا أن نستنبط المفهوم القرآني للنصيحة، وندرك أهمّ مجالاتها وأنواعها، ونطّلع على أهمّ الخصائص والمواصفات العامّة التي تجعل النصيحة قابلة للتطبيق في كلّ زمان ومكان في مجالات التربية والإصلاح والتقويم البشري والمجتمعي.

وتهدف هذه الرسالة القصيرة على تركيز الدراسة على استنباط وصياغة المفهوم العلمي العملي للنصيحة من خلال سياق الآيات القرآنية التي تحدّثت عن النصيحة ومشتقاتها، كما تحاول الدراسة إبراز مجالات وملامح النصيحة القرآنية، بما يعين على الإسقاط والتطبيق العملي للنصيحة في قالبها المعاصر الذي يحتاج إلى كثير من الضوابط والإرشادات بما يناسب قاعدة الأصول والثواب الشرعية التي تقصد في مجملها إلى الإصلاح الشامل والإصلاح العام.

الكلمات المفتاحية: النصيحة في القرآن - أركان النصيحة - مجالات النصيحة

المقدمة

إن دين الإسلام هو دين النصيحة، والدعوة إليه هي أعظم النصائح وأنفعها، وكتابه القرآن هو المصدر الفريد للنصيحة الربّانية الهادية إلى إصلاح الدين والدنيا، وإرشاد العقول وتنوير القلوب. وسيدنا محمد ﷺ هو الناصح الأمين في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإسعادهم في العاجلة والأجلّة. وإن القرآن يُستخدم فيه اللفظ المباشر للنصيحة - نصّح - ومشتقاته في قسم النصيحة المحمودة على ألسنة النبيين والصالحين في مجال الدعوة والإصلاح والتغيير كما في قوله تعالى "وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ"¹، وقوله تعالى "وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"². كما استخدم لفظ النصيحة في النصيحة المذمومة أيضاً كما في قوله تعالى على لسان الشيطان الغوي في مجال الإغواء والتزيين، "وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِّنَ النَّاصِحِينَ"³ ومن خلال دراسة هذه الآيات وتحليلها علمياً دقيقاً، يمكن لنا أن نستنبط المفهوم القرآني للنصيحة، وندرك أهمّ مجالاتها وأنواعها، ونطّلع على الخصائص والمواصفات العامة التي تجعل النصيحة قابلة للتطبيق في كلّ زمان ومكان في مجالات التربية والإصلاح والتقويم البشري والمجتمعي ولا سيما في العصر الراهن.

1سورة الأعراف: 68

2سورة الأعراف: 79

3سورة الأعراف: 21

وقد تستخدم ألفاظ أخرى تفيد معنى النصيحة في القرآن الكريم مثل: الوصية والبلاغ والإنذار والموعظة. ولا شك أنّ تأمل هذه المصطلحات يساعد على مزيد من الإيضاح لمفهوم النصيحة مما يعين على صياغته في صورة جامعة شاملة، تصلح للاستخدام والتطبيق حيث كان.

المفهوم العام للنصيحة في القرآن الكريم

ورد لفظ النصيحة في القرآن الكريم أربع عشرة مرة بصيغ ومشتقات متعدّدة، يتوافق كثير منها في المعنى الأصلي اللغوي، ويختلف - نوعاً ما - في المفهوم الخاص، حسب تنوع أحوال ومواطن السياق القرآني. وأول ما يجب أن يشار إليه من هذه المواضع ما جاء بصيغة الماضي كقوله تعالى في قصة سيدنا صالح عليه السلام "فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ"¹، وكذلك في قصة شعيب عليه السلام "فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ"²، وقوله تعالى عن المعذرين "إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ"³. ونصح بالماضي: هو أصل الكلمة الذي يرجع إليه كل مشتقاتها، يقال نصح الشيء، أي: خلص وكل شيء خلص فقد نصح⁴. ويقال أيضاً: نصحته، ونصحت له، نصيحة ونصاحة أي: أرشدته إلى ما فيه صلاحه.

وفي قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام "أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ"⁵، وقوله تعالى "إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ"⁶. جاءت النصيحة بصيغة المضارع المتعدّي باللام. وهي تفيد المبالغة والاستمرار في النصح، مع الصدق والإخلاص أثناء عملية البلاغ وما يتبعها.

وأكثر مشتقات النصيحة ذكراً في القرآن ما جاء على صيغة اسم الفاعل. فقد ورد أكثر من خمس مرات كقوله تعالى عن هود عليه السلام "أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ"⁷، وقوله تعالى "وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"⁸، وقوله أيضاً "وَأَنَا لَهُ لَنَاصِحُونَ"⁹، وقوله تعالى على لسان الشيطان "وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِّنَ النَّاصِحِينَ"¹⁰، وقوله تعالى على لسان أخت موسى عليه السلام "يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ"¹¹.

1سورة الأعراف: 79

2سورة الأعراف: 93

3سورة التوبة: 91

4جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 615، دار صادر، بيروت.

5سورة الأعراف: 62

6سورة هود: 34

7سورة الأعراف: 68

8سورة الأعراف: 79

9سورة يوسف: 11

10سورة الأعراف: 21

11سورة القصص: 12

وجاء ذكر النصيحة أيضا بصيغة المصدر كما في قوله تعالى "وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ"¹. والنصح هو إخلاص المشورة ونقيض الغش². ويقول الإمام الرازي: "حقيقة النصح، الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه"³. وورد أيضا لفظ النصيحة في القرآن بصيغة المبالغة كما في قوله تعالى "تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا"⁴.

المفهوم الخاص للنصيحة في القرآن الكريم

ومن خلال العرض السابق تبين لنا أن النصيحة في مفهومها العام يراد بها الإخلاص والصدق وإرادة الخير للغير كما يراد بها الصفاء والنقاء والرقية في العرض والبيان. ومع مزيد من التدبر لآيات النصيحة، نجد أنها وردت في سياقات متعددة. فتارة نجدها في معرض الحديث عن أنبياء الله كنوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. وذلك في إطار الدعوة والتبليغ والإصلاح. وتارة نجدها في معرض الحديث عن أفراد يمثلون أدوارا مختلفة في الحياة الاجتماعية العامة، كعرض أخت موسى لآل فرعون في أمر رضاعة موسى عليه السلام. وكذلك في تدبير إخوة يوسف لأخذه معهم، وفي نصيحة الرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة لينصح موسى عليه السلام كما تأتي النصيحة في سياق الحديث عن المعاني القيمة كالتوبة. وأخيرا ترد النصيحة في ادعاءات كاذبة أيضا كما تلفظ بها الشيطان في معرض الغواية والإضلال، ومحاربة القيم والفضائل.

ومن خلال تأمل هذه المواضع من ناحية المعاني اللغوية، يمكن لنا التوصل إلى صياغة مفهوم خاص للنصيحة. وهو إرادة الخير الخالصة للمنصوح بصدق القول وصفاء القلب وسلامة الغاية. وأصدق مثال لهذا التعريف ما جاء في نصيحة الأنبياء عليهم السلام، لأنهم أرادوا الخير كل الخير لمدعوهم. إذ لا شك أن دعوة الناس إلى خالقهم، وإرشادهم إلى مصدر حياتهم وأرزاقهم، هو الخير الخالص الذي لا تشوبه شائبة، ولا يدفع إليه إلا الصدق والإخلاص، والحرص الأكيد على نفع المنصوح. ولذا تكرر في قصصهم ما يؤكد على هذه المعاني نحو قوله تعالى عن نوح عليه السلام "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"⁵ وقوله تعالى "وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ"⁶.

1سورة هود: 34

2جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 615، دار صادر، بيروت.

3فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 7، ص 163، دار الفكر، بيروت، 1981 م.

4سورة التحريم: 8

5سورة الأعراف: 59

6سورة هود: 29

الأركان الأربعة للنصيحة

ومن هذا التعريف للنصيحة، يمكن لنا أن نحدّد أهم أركانها، فهي ناصح، ونصيحة، ومنصوح، وأداة النصح. فالناصح لا بد أن يكون أميناً مخلصاً، والنصيحة لا بد أن تكون ناصعة خالصة، والمنصوح لا بد أن يكون مقصوداً بالنصيحة وما فيها من خير، وأداة النصيحة لا بد أن تكون صادقة التعبير رقيقة البلاغ.

ومن خلال هذه الأمور الأربعة بمواصفاتها المذكورة تكون النصيحة بمفهومها الصحيح، ذي القيمة المعروفة. أما إذا فقدت هذه الأركان الأربعة بصفاتهما أو واحدة منها فلا تكون إلا ادّعاء كاذباً أو إلباساً لباطل زائف بصورة الحق الناصح كمثل نصيحة الشيطان. فهو وإن ادّعى أو أقسم أو أكّد أنه من الناصحين فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون من مردي الخير. وذلك أنه لا خير مطلقاً فيما دعا إليه، فإنه دعا إلى معصية الله والخروج على أوامره، ثم استخدم الكذب والافتراء وسيلة ليحقق غايته المدمومة في إغواء آدم عليه السلام وذريته.

وهكذا يعمل كل أفاك كذوب، ليستري الانتباه العابر، ويستجلب التقدير الزائف. ولا شك أن ذلك من شر ما يكون في سلوك البشر. ولكنه في نفس الوقت يشير إلى ما يحمله مصطلح النصيحة من معان الخير الخالص، وتأثير ذلك على المنصوح مما دفع رموز الشر إلى التمسح به والتغني بمشتقاته ليرفعوا عن أنفسهم خسيصة الشر المتأصل في نفوسهم. ولكن سرعان ما يُكتشف أمرهم، يفتضح عورهم، إذ يفاجئون أن النصيحة ليست قولاً جزافاً يدّعيه اللسان، بل إنما هي عملية تبدأ من القلب بوازع الإخلاص والصفاء، ويعبّر عنها اللسان بحرارة الصدق والوفاء. فيجد المنصوح أثرها، ويستشعر غايتها، ما سلم قلبه وفطن عقله، وورق لندل. وهذا ما نستشعره في صحيحة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى منبّها قومه إلى معالم صدق نصيحة المرسلين حيث قال لهم "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ"¹.

مميزات كلمة النصيحة

وهذه الإشارات يزداد مفهوم النصيحة في الاصطلاح تحديداً، ويتميّز بجملة من المعاني والقيم الأخلاقية الإنسانية التي لا يمكن لألفاظ أخرى أن توجزها في مصطلح واحد. فيقول الإمام النووي، نقلاً عن الخطابي "النصيحة، من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن المعنى في هذه الكلمة"² وربما من أجل هذا نجد النبي ﷺ يعبّر عن الدين في شموله وعمومه بالنصيحة في حديثه المشهور "الدين النصيحة"³، أي في جوهره فهو رسالة الخير. وهدفه إرادة الخير للعالمين. وغايته ربّانية محضة. وكذلك وسيلته الرحمة العامة. ولعلّ هذا الفهم الشامل الكامل المتنوع للنصيحة هو

1سورة يس: 20، 21

2يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، شرح مسلم، ج 2، ص 37، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1973 م.
3مسلم بن حجاج، صحيح مسلم، رقم الحديث 55، ج 1، ص 74، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993 م.

الذي دفع الإمام النووي يردّ ما قاله رهط من العلماء أن حديث النصيحة يعتبر أحد أرباع الإسلام بقوله "فليس كما قالوه، بل المدار على هذا وحده"¹. يقصد أن حديث النصيحة تدور عليه أمور الدين كلها.

وربما كان هذا الشمول لمعاني الخير المتجرّد في مصطلح النصيحة وأركانها هو أبرز ما يميّزها عن غيرها من المترادفات التي شاع استخدامها بديلاً عنها أو معها. ويتأكد مما ذكر، ما لمصطلح النصيحة في القرآن من خصوصية وتميز في المفهوم والدلالة، ففيه جماع الخير المخلص، النابع من صفاء القلب المحمول على صدق القول والمشاعر الغير مرتبط بزمان ولا مكان.

الناصحون في القرآن الكريم

تشير آيات النصيحة في القرآن الكريم إلى بيان أهمّ أصناف القائمين بعملية النصيحة، وبعض خصائصهم أثناء عمليتها. وهذا ما سنحاول استنباطه والوقوف عليه في هذه الرسالة القصيرة، ليكون فيه قدوة لكل ناصح معاصر يريد أن يسلك سبيل الناصحين الريانيين ويتجنّب طريق المدعين الشيطانيين.

أولاً: الأنبياء عليهم السلام

إن الأنبياء هم صناع النصيحة، وأعلام النصح، وقادة الناصحين على مدار التاريخ. وواجب النصيحة في حقهم يعتبر من أبرز مهامهم ومن صميم أعمالهم. كقوله تعالى عن نوح عليه السلام "أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"²، وعن هود عليه السلام "أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ"³. فمن سياق هذه المواضع، يتضح أن نصيحة الأنبياء تعرض كواحدة من أهم مهامهم تجاه أقوالهم، فهم ينصحون، ويبلغون تماماً كما يتلقون الوحي الذي من خلاله يعلمون ما لا يعلمه غيرهم. ونلاحظ في الموقع الأول ذكر النصيحة بين البلاغ والعلم، فهي معطوفة على الذي قبلها "أبلغكم"، ومعطوف عليها الذي بعدها "وأعلم". ومما يشعر بمنزلتها وأهميتها في رسالات الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم، فهي وسيلة البلاغ النبوي، كما أنها دليل العلم والمعرفة الربانية.

وإذا تأملنا نصائح الأنبياء الوارد ذكرها في القرآن الكريم، وطريقة صياغتها وعرضها، نجد أنها تتميز بعدة خصائص، منها:

1. مباشرة واضحة في المضمون والصياغة

2. استمرارها والثبات عليها

3. تجرّد المقصد وسلمية الوسيلة

4. الإيجابية وذاتية البدء

¹ يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، شرح مسلم، ج 2، ص 37، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1973 م.

² سورة الأعراف: 62

³ سورة الأعراف: 68

5. تنوع الأدلة في البيان والحجاج

ثانياً: أفراد يمثلون أدواراً مختلفة في الحياة الاجتماعية العامة

ونرى الناصحين في القرآن أفراداً من المجتمع رجالاً أو نساءً، فرادى أو جماعات، من العامة أو الخواص. من أمثلة ذلك نصيحة الرجل الذي يسعى من أقصى المدينة لينصح موسى عليه السلام حيث قال تعالى "وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"¹، فهو رجل فرد من الخواص المقربين من فرعون أو ربما يكون من أقاربه كما تذكر بعض الروايات. ومثال المرأة الناصحة في قصة موسى عليه السلام، فقد دلت القوم على أنصح الناس لموسى في القيام بحاجته ورعايته في سن طفولته حيث قالت "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ"². وهي قصدت أم موسى في نصحتها لابنها، أو ناصحون للملك.

وإذا اتبعنا هذا النوع من الناصحين في القرآن، نجد أن نصيحتهم تتميز ببعض الخصائص. ومن أهمها:

1. تعدد الدوافع

2. عدم جواز تأخيرها

3. الجدبة والعملية

ثالثاً: القيم والمبادئ

المعروف أن تكون المبادئ والقيم نصيحة تقدم، أما أن تكون ناصحاً فهذا هو الجديد الذي نجده في إشارات القرآن الكريم نحو قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا"³. فقد ورد في التفاسير أن التوبة النصوح هي "البالغة في النصوح. والمعنى - توبة تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها". ولا شك أن ذلك من أقوى أنواع النصيحة التي يجب أن يفتن إليها خاصة في العصر الحاضر للأسباب الآتية:

1. لا يمكن للمعاني والقيم أن تحول إلى نصيحة ناصح إلا من خلال نفس تحملها وتؤمن بها، ولذا فإن وجودها في النفس نصوحاً، يعتبر دليلاً على أنها بلغت مبلغاً جَلَّلاً في أعماق صاحبها (المنصوح).

2. لا يمكن أن تكون المبادئ ناصحة للغير إلا إذا تحولت إلى فعل ملموس أو موقف مشهود في حياة المجتمعات والشعوب، فتكون مصدر إشعاع نور.

1سورة القصص:20

2سورة القصص:12

3سورة التحريم:8

3. تعمل المعاني والقيم ناصحة على المستوى الفردي في ذات نفس صاحبها كما تعمل على المستوى الجماعي.
4. تحول المعاني والقيم في نفس الأفراد إلى ناصح وسط الجماعات قد يكون أقوى تأثيراً من نصيحة الجماعات لفرد، وذلك عملاً بالقول الشائع "عمل فرد في ألف خيرٌ من قول ألف في فرد".
5. تعتبر نصيحة القيم والمبادئ من مجالات الدعوة الصامتة التي تنطلق في تأثير فعال بلا تكلف، وفاعلية مؤثرة بلا معاناة.
6. تجمع نصيحة القيم والمبادئ كل أركان النصيحة في محل واحد، فالنصيحة والناصح والمنصوح وأداة النصيح توجد داخل النفس البشرية أولاً، قبل أن تنتقل إلى المحيط الخارجي.
7. مقدار أثرها في العالم الخارجي مرهون بعمق أثرها في عالم النفس والضمير الداخلي.
8. لا ينقطع تأثيرها والنفعة بها، فهي في حال استمرار وديمومة ما وجدت الحاجة إليها.

رابعاً: الشيطان وأعدائه

هذا النوع هو الذي يلبس ثوب النصيحة في حين أنه لا يعرف طريقها، ويدّعي الانتماء للناصحين وهم منه براء. وأصدق ما يقال في وصفهم ما أنشده أحمد شوقي في وصف الثعلب الذي برز في زي الواعظين، يراوغ بكل مكر وخديعة حتى يصل إلى بغيته السقيمة. وكذلك فعل الشيطان عندما برز في زي الناصحين بهدف إغواء آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة، ليجعله من العصاة في معصية التاريخ المشؤمة كما يذكر تعالى "وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِّنَ النَّاصِحِينَ".¹

ومثاله أيضاً ما ألقاه الشيطان في قلوب إخوة يوسف عليه السلام، فقد مكروا مكروهم، وعزموا على أن يجعلوا يوسف في غيابة الجب، حسداً من عند أنفسهم، فارتدوا لباس الناصحين، وادّعوا أنهم من الحافظين الناصحين، فقالوا لأبيهم يعقوب عليه السلام "قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ".²

والأمر العجيب في الموقفين أن مكيدة الشيطان مع آدم قد نجحت، وحيلة إخوة يوسف مع أبيهم نفذت رغم أنهم أنبياء مبعولون. وربما كان سبب وقوع الأنبياء ضحية لهذا المكر والخداع هو استخدام لقب الناصح وأسلوب النصيحة الذي ليس له معنى في قواميس الأنبياء والمصلحين إلا إرادة الخير الخالص.

وهذا البيان عن الناصحين في القرآن مع اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وخصائصهم، يتحدد أيضاً أهم المجالات التي تكون فيها النصيحة تطبيقاتها المعاصرة كما يُذكر أدناه.

1 سورة الأعراف: 21

2 سورة يوسف: 11

مجالات النصيحة في القرآن وتطبيقاتها المعاصرة

من العرض السابق لمفهوم النصيحة، وبيان الناصحين وخصائصهم من خلال آيات النصيحة في القرآن الكريم، نستطيع أن نتبين مجالات النصيحة القرآنية التي من خلالها يمكن الوصول إلى التطبيقات العملية المعاصرة للنصيحة. وبيان ذلك ما يلي:

أولاً: النصيحة لله ورسوله

جاء في سبل السلام عن الخطابي قوله: "النصح لله - هو الإيمان به ونفي الشرك عنه وترك الإلحاد في صفاته وتزيهه عن جميع أنواع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معاصيه والحب فيه والبغض فيه وموالاته من أطاعه ومعاداة من عصاه وغير ذلك مما يجب له تعالى. والنصيحة لرسول الله - هو تصديقه بما جاء به واتباعه فيما أمر به ونهى عنه وتعظيم حقه وتوقيره حيًا وميتًا ومحبة من أمر بمحبته من آله وصحبه ومعرفة سنته والعمل بها ونشرها والدعوة إليها والذب عنها".¹

وهذا هو أول مجالات النصيحة التي ينبغي أن يهتم بها الناصحون. وهو يعني في مجمله - إصلاح النفس بأركان الإيمان ومواصفاته قبل الالتفات إلى إصلاح الآخرين، كما يعني أن يكون الناصح قدوةً قبل الإرشاد والتقويم، ويعني أيضًا ارتباط نجاح عملية النصح الخارجي بقدرة الناصح على نصح نفسه وتوجيهها.

وهذا النصح لله ولرسوله يعتبر من أجل الأعمال وأقومها، ولذا جعله الله تعالى الشرط الوحيد الذي يعفى أصحاب الأعداء من المشاركة مع المجاهدين في الغزوات، ويرفع عنهم معذرة التخلف عن رسول الله ﷺ في هذا المقام. بل ويصل بهم إلى درجة المحسنين. فقال تعالى "لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"².

والشاهد هنا أن الله تعالى جعل هذا النوع من النصيحة مقابل الجهاد في سبيل الله في حق أهل الأعداء، ووصف القائمين به أنهم من المحسنين، وذلك لأهميته مع الجهاد من الناحيتين: قوة النفس مع تزكية الروح مع الإعداد المادي من أهم مقومات النصر في المجتمعات. ثم إن القيام بواجب النصح لله ولرسوله بالمفهوم السابق سيعمل على حفظ الأوطان من مساوي الأخلاق وفساد الضمائر، خاصة عند انشغال الأمة بميدان القتال.

وربما يسترشد لهذا المعنى بما ذكره الرازي عند قوله تعالى "إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ". فقد قال "إنهم إذا أقاموا في البلد احتزروا عن إلقاء الأراجيف، وإثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا، إما بأن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم، وإما بأن يسعوا في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم، فإن جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد."³

1محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام، ج 4 ص 210، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1960 م.

2سورة التوبة: 91

3فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 8، ص 119، دار الفكر، بيروت، 1981 م.

والناصحون في العصر الحاضر يحتاجون إلى أن ينتهوا إلى هذا المجال الهام في النصيحة، وأن يكثرُوا من تطبيقه وشيوعه في الحياة المعاصرة، وأن يقضوا جلَّ أوقاتهم مع أنفسهم في مجال النصيحة لله ورسوله بالمفهوم الذي سبق ذكره. فذلك سيعينهم على ما يأتي:

- أ. الوصول إلى درجة المحسنين في أداء النصيحة، فالآيات تبين أن النصيحة لله ورسوله طريق المحسنين، ولا يخفى ما يصحب الإحسان من ازدهار وتقدّم منشود في جميع مناخي الحياة.
- ب. حفظ الأوقات واستثمارها في مجالات الخير الأخرى، وذلك لأن الأفعال والقُدوة في هذا المجال من النصيحة ستكون أسبق إلى المنصوح من الأقوال بما يوفر الأوقات ويدخر الطاقات.
- ت. قوة تأثير النصيحة واستمرار بقائها، فإذا قويت النفس في الله ورسوله، اكتسبت الثقة والثبات في عين الآخرين، بما يدفعها أن تكون وثابة وقافة نحو الخير وعند الخير.
- ث. إقامة مجتمع القدوات المتحركة الذي من خلاله تتحرك منظومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتلقائية غير مفتعلة.

ثانياً: الدعوة إلى الله تعالى

والأصل في هذا المجال أن يأتي بعد تحقق المجال الأول، أو أن يكون متزامناً معه. ولا شك أن الدعوة إلى الله تعالى تُعدّ من أبرز وأهم مجالات النصيحة قديماً وحديثاً، وهي في عرف المصلحين تُعتبر من أنفس النصائح وأعلاها قيمةً. ذلك لأن القائمين بها هم الأنبياء والمرسلون، والدعاة السائرون على دربهم. كما قال تعالى "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"¹

والملاحظ لنصيحة الأنبياء في القرآن يجد أن جلها يقع تحت مجال الدعوة إلى الله. فكل واحد منهم جاء بنفس الرسالة اليسيرة الوجيزة هي عبادة الله وحده كقوله تعالى "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"². وكلهم كانوا حريصين - ليس فقط على أن تصل هذه الدعوة إلى الناس - إنما تجاوزوا ذلك إلى حرصهم الشديد على انتفاع مدعوهم بهذه النصيحة الجليلة. ظهر ذلك في استمرار نصيحتهم، وتنوع عرضها، والإلحاح في توصيلها، والحزن الشديد على عدم الاستجابة لها. يقول تعالى عن الرسول ﷺ "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"³.

1سورة فصلت: 33

2سورة الأعراف: 65

3سورة الكهف: 6

ولا يخفى أن العصر الحاضر في حاجة ماسة إلى هذا النوع من النصيحة في الدعوة المعاصرة التي تتحرك بين أطراف شتى ومعتقدات متنوّعة. ووسائل مستحدثة بلغت الآفاق وأسرت القلوب وأثرت في العقول. ولتطبيق هذا المجال من النصيحة في العصر الحاضر تجب مراعاة الأمور التالية:

1. أن يمارس الدعوة المعاصرون الدعوة بإحساس وشعور الناصحين، في هدفهم: فهم يريدون إرضاء رب العالمين وحده. وفي أخلاقهم: فهم الحريصون المخلصون الصادقون. وفي وسائلهم: فهم المبدعون المجددون المتنوعون.
2. وأن يجعلوا دعوتهم نصيحة، في هدفها: فهي تنشد الخير الناصع. وفي سمتها: فهي هادئة لينة، وفي وسيلتها: فهي متنوعة هادفة.
3. اعتبار المدعو منصوحاً، فيتعامل معه بالتسهيل والتيسير لا التعقيد والتنفير.
4. أخذ نماذج الأنبياء في نصيحتهم أقوامهم نموذجاً يحتذى به مع المدعويين في العصر الحاضر.

ثالثاً: الوقاية ودفع الضرر

وهذا مجال آخر للنصيحة له أهمية هامة. ويأتي في صور متعدّدة منها:

- أ. الوقاية من عذاب الله في الآخرة. مثال ذلك ما جاء في نصيحة نوح عليه السلام. حيث قال تعالى "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"¹، وفي نصيحة صالح عليه السلام كما قال "وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"².
 - ب. الوقاية من عذاب الله في الدنيا. مثال ذلك ما جاء في قصة شعيب عليه السلام، إذ ينصح قومه من عاقبة التكذيب بآيات الله. يقول تعالى "وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنْكُمْ بَعِيدٌ"³.
 - ت. دفع ضرر مكيدة معلومة ومخطط مؤكد، كما فعل مؤمن آل فرعون عندما بلغه كيد فرعون بموسى عليه السلام كما قال تعالى "قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمُلَأَّاتِ يُتَمَرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"⁴.
- ولا شك أن هذا المجال في النصيحة مما يحتاج إليه المربون الموجهون في العصر الراهن. وخاصة بين الوالد وولده، والأستاذ وتلميذه، والرئيس ومرؤوسه. وحتى تكون النصيحة في هذا المجال على هدي القرآن عملية نافعة، لا بد أن تشتمل الوقاية من عذاب الآخرة والدنيا معاً. كما يجب أن تحمل معنى الخوف والشفقة على المنصوح، وذلك حتى لا تأخذ شكل التهديد أو الوعيد كما ينبغي ألا تكون مبنية على إشاعات أو أكاذيب فتصبح إفساداً أو ترويعاً، أو حدثاً يحتاج إلى نصيحة.

1سورة الأعراف: 59

2سورة الأعراف: 73

3سورة هود: 89

4سورة القصص: 20

رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهذا المجال جليّ واضح من نصيحة شعيب عليه السلام، فقد ضمنها جملة من المعروف أمرهم به، وجملة من المنكر نهاهم عنه. فقال تعالى عن ذلك " فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا"¹.

ونلاحظ أن النصيحة في هذا المجال إيجابية بناءة، تبدأ بالمعروف قبل المنكر، لتتجنب المواجهة والتحدي، وتكون معينا على قبول الخير، وهذا ما يجب أن يفتن إليه الناصحون المعاصرون عند تطبيق النصيحة في هذا المجال، فكم من كثيرين ظنوا أنفسهم ناصحين، فبدأوا ناهين ناهرين، ذاكرين العيوب أو مفندين الأخطاء، فانتهى بهم المقام إلى نزاعات واتهامات، ومدافعات ومعادنات، ولو أنهم نهجوا نهج نصيحة القرآن فبدأوا بالحديث عن المعروف والدعوة إليه، لكان ذلك معينا على بناء الجسور وفتح آفاق الحوار للحديث والسماع، وربما أدّى ذلك إلى قبول النصيحة أو على الأقلّ عدم معاداتها.

خامساً: الإصلاح والإرشاد العام

وهو مجال خصب للنصيحة يعمل على التفكير الناضج الإيجابي الذي به تنصلح الحياة، وتبلغ ذروتها في العمارة والحضارة. مثلاً: نصيحة هود عليه السلام لقومه " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"². فهو يرشد إلى أسباب النمو والرخاء الاقتصادي، كما يتحدث عن قوة مادية متعددة، تؤهل القوم لمزيد من التقدم الحضاري بين الأمم والشعوب. وهكذا يجب أن تكون نصيحة الأجيال الصاعدة في المجتمع المعاصر أفكاراً واقتراحات ومشروعات لنهضة الأمة وحفظها من النكبات والتأخر.

ومثل هذا النوع من النصيحة لا يُطلب، إنما دافعه الذات والحرص على الإصلاح والتطوير. ولكنه إذا طُلب من أولياء الأمر والمسؤولين، كانت الحركة إليه أوجب والقيام به على وجه السرعة أُلزم. والأمة في حاجة أن ترسخ لهذا النوع من النصيحة في قلوب الشباب المعاصر وعقولهم، وذلك بدعوتهم للمساهمة بأفكارهم في عمليات الإصلاح والتطوير التي لا تنتهي، وأيضاً عن طريق تشجيع المبادرين بمثل هذا النوع من النصائح الإصلاحية البناءة لدى أولي الأمر والمسؤولين.

ويذكر الدكتور علي إبراهيم الجمالي في مقالته عن الأصول العشرة للعدالة التي ذكرها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، ومنها يذكر "الاهتمام برؤية العلماء والحرص على سماع نصائحهم"³. ويتبين أن العلماء لديهم مسؤولية كبرى فعليهم أن ينصحوا نصيحة خالصة للأمة.

1سورة الأعراف: 85

2سورة هود: 52

3الدكتور سيد مسعود الجمالي والدكتور علي إبراهيم الجمالي. "السمات القيادية في المفهوم الإسلامي". Al-Bukhari Journal of Arabic and Islamic Studies

وبفهم هذه المجالات في النصيحة ومحاولة تطبيقها في العصر الراهن على مختلف المستويات، يمكن أن تأخذ أمتنا طريقاً سليماً لبناء مجتمعات ناهضة، محبة للنصيحة أن تكون على خير وجه، وأن يقبلوا النصيحة على أي وجه كان.

خاتمة

هذه الرسالة القصيرة إنما تتضمن على بعض من البحث عن آيات النصيحة في القرآن الكريم دراسة وتحليلاً في بيان المفهوم والمجالات والتطبيقات. وتشمل أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها هذه الدراسة. وبيانها كالآتي:

أ. يجب الاعتماد على القرآن المجيد وسنة نبينا محمد ﷺ كمرجع أساسي لدراسة وتحليل وتطوير القيم والمبادئ الإنسانية العامة، ومحاولة إسقاطها بالتطبيق على الحياة المعاصرة.

ب. القرآن الكريم هو الوعاء الخصب الممتلئ بكل ما يحتاج إليه الناصحون، والمرجع الذي تُقاس وتُصنع عليه النصيحة في كل أشكالها وأنواعها. فالناصح الشرعي يجد مادة نصيحته وافرة بين الآيات القرآنية في جميع مجالات الشريعة، وكذلك حال الناصح الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو التربوي وغيرهم. كل يجد القرآن مصدراً لنصيحته أو مدعماً لنظريته أو منبهاً مصوباً لزلته وعثرته.

ت. النصيحة في القرآن الكريم من أهم المصطلحات التي تتميز بالشمول في معاني الخير والقيم الأخلاقية في التعامل مع الآخرين، وذلك من ناحية جوهرها، ومقصدها، وطرق أدائها وكذلك في مردودها.

ث. النصيحة بمفهومها الشرعي الصحيح، لا تتحقق إلا مع أركانها الأربعة بمواصفاتها الآتية: ناصح أمين مخلص، نصيحة ناصعة خالصة، منصوح مقصود بالنصيحة، وأداة للنصيحة صادقة في التعبير رقيقة في البلاغ. أما إذا فقدت هذه الأركان الأربعة بصفاتها أو واحدة منها فلا تكون إلا ادعاءً كاذباً، وإلباساً لباطل زائف بصورة الحق الناصح.

ج. الناصحون في العصر الراهن في حاجة إلى نماذج عملية يتعلمون منها فن النصيحة، وخير من يقتدي بهم في هذا الباب أنبياء الله عليهم السلام، فهم صنّاع النصيحة وأعلام النصيح وقادة الناصحين على مدار التاريخ.

ح. الوقاية العامة ودفع الضرر المؤكّد من أهمّ مجالات النصيحة بين المرّتين على اختلاف مسؤولياتهم ومواقعهم في العصر الحاضر. وحتى تكون النصيحة في هذا المجال على هدي القرآن، لا بد أن تشمل الوقاية من عذاب الآخرة والدنيا معاً. كما يجب أن تحمل معنى الخوف والشفقة على المنصوح، وذلك حتى لا تأخذ شكل التهديد والإرهاب.

خ. الإصلاح والإرشاد العام من أهمّ مجالات النصيحة في العصر الراهن. ولذا يجب على الأمة أن ترسخ لهذا النوع من النصيحة في قلوب الشباب المعاصر وعقولهم. وذلك بدعوتهم للمساهمة بأفكارهم في عمليات الإصلاح والتطوير، وأيضاً عن طريق تشجيع أولي الأمر والمسؤولين للمبادرين بمثل هذا النوع من النصائح الإصلاحية البناءة.

ونرجو الله، أن نكون قد وفّقنا في تقديم بعض المعلومات، التي ستسهم بزيادة الاهتمام في النصائح المذكورة في القرآن

الكريم، والتي يمكن أن تسهم بطريقة غير مباشرة في تطوير أخلاق الورى حول العالم بغض النظر عن الديانة والبلد والخلفية.

المصادر والمراجع

1. القرآن المجيد.
2. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، 2001 م.
3. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2006 م.
4. السجستاني، سليمان بن الأشعث أبو داود، سنن أبي داود، مطبع أصح المطابع، ديوبند، 1996 م.
5. النووي، يحيى بن شرف أبو زكريا، شرح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1973 م.
6. الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، 1981 م.
7. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990 م.